زهرة وزهرة . . . !

جلست أنتظر فى حجرة مدير المكتب حتى يأتى دورى فيؤذن لى بالدخول على كبير من أصحاب الديوان فى إحدى الوزارات ؛ وكانت الحجرة ملأى بالمنتظرين مثلى ؛ وكلما رن الجرس وأسرع المدير إلى الحجرة المهيبة وخرج منها ، تأهب كل امرئ يحسب أن الإذن له ، فيشير المدير إلى من يعرف ، وينادى اسم من لا يعرف ، فيصلح الداخل حلته ويزرها ويعدل رباط رقبته ، وقد ينزع طربوشه ويمسحه بمنديله أو بطرف ردنه ، ويضمه على رأسه فى اهتمام ، ويدق الباب فى احتشام ، ويدخل ثم يخرج بعد حين وعلى وجهه عَبَرَةٌ أو ابتسامة ... وكان يقع منظارى على هؤلاء ، وأنا أحمد الله أن لم تكن بى حاجة إلى هذا الكبير ، فما جئت إلا لأقدم إليه « كتابى » ...

ودخل أكثر من بالحجرة وخرجوا ، وبقيت سيدة على أحد المقاعد ، حيث وقع نظرى عليها منذ دخلت هذه الحجرة ... سيدة هى الحزن نفسه تمثل إنسية فى ثياب الحداد ! ...

كنت أنظر إلى وجهها الضارع فتنمزع على قلبى وعلى كبدى هذه اللوعة الناطقة فيه ، وكانت تدوررطرحة سوداء بهذا الوجه ، وهو فى لون العاج المصفار ، فتزيد بياض صفحته وتبرز معنى الثكل فيه ... وكانت هذه السيدة الحزينة تنظر داعماً إلى الأرض ، فلا تكاد ترفع بصرها حتى ترده إلى حيث كان فى ضراعة وتخشع ، وكم كان يحزن نفسى ما أراه من حمرة فى جفونها كلما التقى بصرى بعينيها الواسعتين الهادئتين ، اللتين أطفأ الحزن والسقم ما كان فيهما من بريق !

وكانت هذه الزهرة الذابلة رائعة الحسن على الرغم من لوعتها وضراعتها ، تروعك ملاحة وجهها بقدر ما يروعك حزنها ... وهكذا جعل الحزن روعتها روعتين ، وجعل ما يحسه القلب حيالها من لوعة كأنما يذوقها مرتين !

وكانت شابة لا تزيد على الثلاثين فيما أحسب ، وفهمت أنها أرملة كبير من أصحاب هذا الديوان ، فعجبت كيف يدعها موظفو المكتب حيث هى فلا يعينونها على ما جاءت له من أمر ، ولو لم يكن زوجها من أصحاب هذا الديوان من قبل ، لكان لها من هذا الحزن الضارع أكبر شفيع ... بل لكان لها من مجيئها ولم تخلع ثوب الحداد بعد ، ما هو خليق أن يلين لها القلوب ولو كانت من الصخر ...

ولكن ... فيم العجب ، ولو أن زوجها نفسه أحيل على المعاش ، كما يقول أصحاب الديوان ، وجاء بعد يوم واحد إلى نفس الديوان ، لتنكر له من كانوا من قبل يرجون مودته ، ولحياه من يحييه ، وكأنما يريد أن يفهمه أنه يتفضل عليه بهذه التحية ، فكيف وقد طواه الموت ؟ !

بهذا حدثتنى نفسى وأنا أنظر إلى هذه التى يغطى السواد جسدها كله ، فلا يُرى إلا وجهها ويداها ، والتى كنت أتخيل أن ما يطرأ على خاطرى من هذه المعانى هو عين ما كان يطرأ على خاطرها فى تلك اللحظة ...

ودخلت بعد حين غانية أخرى فى زينتها ودلها وألوانها ، تخطو خطوات رشيقة سريعة وتتثنى وتتخلج كأنما تمشى لا برجليها وحدهما ، وإنما بهيكلها كله ، وقد فاح فى الحجرة عطورها ، وارتفع بالتحية صوتها ، وهى تقول إنها تريد أن تقابل سعادة البك ...

... وجلست هذه الزهرة الناضرة ، وقد هش لها مدير المكتب ، وأقبل عليها يحدثها حتى ما كان يبى تحيات القادمين ولا نداء الموظفين ، ولا يفطن إلى ما يلقونه إليه من أوراق ! ... حتى الجرس نفسه — جرس الرئيس المهيب — كان يتوانى فى إجابته ، ثم يهرول ليعود بعد لحظة يصور لمحدثته مبلغ ما لدى رئيسه من أوراق ينظر فيها ، وذلك كى يجعل له عليها فضل الحصول لها على الإذن ...

ودخل الحجرة بعض النبهاء من الموظفين يتظاهرون أنهم قدموا لعمل ... فكانت أياديهم بأسمائهم فيسرعون إليها فتسأل الواحد منهم عما تم فى مسألتها ... فيحدثها فى تظرف واهتمام ، ويصف لها مقدار ما يبذل من جهد وعناية فى هذا الأمر ، وهى تخرج الكلام من فمها تارة ومن أنفها تارة ، ولا تكاد تستقر فى موضعها وتهددهم ضاحكة أنها سوف تشكوهم إلى سعادة البك